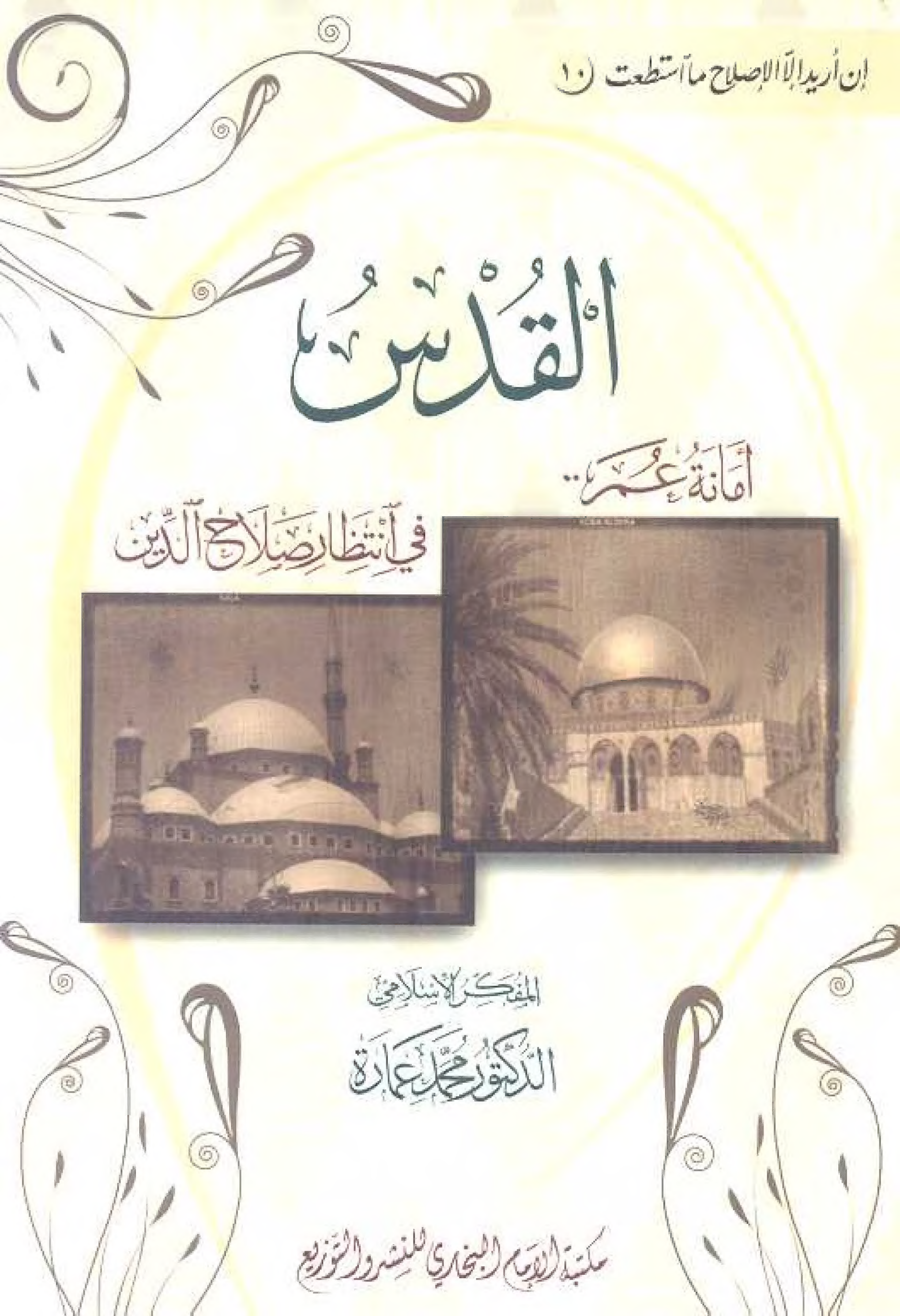


إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ١٠

القدس

أمانة عمر.. في انتظار صلاح الدين

المفكر الإسلامي
الدكتور محمد عمارة

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

القُدْسُ

أمانة عُمَر - في انتظار صلاح الدين


بسم الله الرحمن الرحيم

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت (١٠)

القدس

أمانة عمر.. في انتظار صلاح الدين

المفكر الإسلامي
الدكتور محمد عمارة

مكتبة الإمام البخاري



الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٥٦٩ - ١١ / ١ / ٢٠٠٩م

ISBN
977- 5291 - 94 - 1

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر - إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عمارة ، محمد

القدس : أمانة عمر .. في انتظار صلاح الدين / محمد عمارة . - القاهرة :
مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩ .

٦٤ ص ؛ ٢٠ سم (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ؛ ١٠)

١ ٩٤ ٥٢٩١ ٩٧٧

١- القدس - تاريخ ٢- المشكلة الفلسطينية

أ - العنوان ب - السلسلة ٩٥٦,٩١

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

القاهرة : ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - ت ٢٥١٤٤٠٧٣
جوال ٠١٢/٣٦٧٦٧٩٧ - ٠١٠/٦١٨٦١١٤

مقدمة

البعد الديني للصراع على القدس

القُدْس – في الرؤية الإسلامية – ليس مجرّد أرض محتلة ، ومدينة مغتصبة .. وإنما هي – مع ذلك وفوقه وقبله وبعده – جزء من العقيدة الدينية الإسلامية – فضلا عن الحضارة والتاريخ – .. ذلك لأنها حرم مقدَّس ، ربط القرآن الكريم بينها وبين الحرم المكي عندما تحدث عن معجزة الإسراء والمعراج : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] .

فهي – في الدين والعقيدة – أولى القبلتين .. وثالث الحرمين .. وحرمها مع الحرم المكي والحرم المدني يمثلون المساجد الثلاثة التي تنفرد بشدِّ الرِّحال للصلاة فيها .. ورباطها االمُقَدَّس مع الحرم المكي هو الرمز المسجد لعقيدة وحدة الدين الإلهي الواحد ، عندما ارتبطت القِبْلَةُ الخاتمة – الحرم المكي – بِقِبْلَةِ النبوات السابقة – الحرم القدسي الشريف – ..

ولقد تجلت هذه المكانة المقدسة للحرم القدسيّ الشريف عندما عاملها المسلمون – على مَرّ التاريخ – معاملة « الحرم » الذي لا يجوز فيه القتال .. فالحرم المدني فُتِحَ بالقرآن .. والحرم المكي فُتِحَ سِلْمًا ، حتى لقد دخله الرسول الفاتح - ﷺ - يوم الفتح الأكبر - ساجدًا على راحلته ، شكرًا لله .. والحرم القدسي حرص المسلمون على فَتْحِه سِلْمًا وصُلْحًا ،

وجاء فتسلم مفاتيحه الراشد الثاني الفاروق عمر بن الخطاب [٤٠ ق . هـ ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] .. ولقد سار على هذه السنة صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ١١٣٧ - ١١٩٣ م] عندما استردها من الصليبيين [٥٨٣ هـ ١١٨٧ م] .. بعدما يقرب من تسعين عاما احتكروها فيها وانتهكوا حرمتها وقدسيتها ..

ولقد كانت القدس الشريف - على مر تاريخ الصراع بين الغرب الصليبي والشرق الإسلامي - هي رمز هذا الصراع .. وهي بوابة الانتصارات .. حتى لقد لخَّص الشاعر العماد الكاتب [٥١٩ - ٥٩٧ هـ ١١٢٥ - ١٢٠١ م] هذه الحقيقة من حقائق استراتيجية هذا الصراع ، عندما قال لصلاح الدين الأيوبي :

وهَيّجتَ للبيت المقدس لوعة يطول بها منه إليك التشوق

هو البيت ، إن تفتحه ، والله فاعل فما بعده باب من الشام مُغلق

ولقد حرص المسلمون - عندما حرروا القدس [١٥ هـ ٦٣٥ م] من الاستعمار الروماني .. الذي دام عشرة قرون - على أن يكون اسمها عنوانًا على قَدَاستها وقُدسيتها ، فسمُّوها « القدس » و « القدس الشريف » و « الحرم القدسي الشريف » .. كما حرصوا - بحكم إسلامهم ، الذي تفرد بالاعتراف بالآخرين - عقائدهم ومقدساتهم - على إشاعة قُدسيتها بين كل أصحاب المقدسات .. فجعلوها حرمًا مقدسًا وقدسيًا لكل أصحاب الديانات السماوية ، حتى لقد كانت السلطة الإسلامية هي الضمان لمصلحة الجميع ، فلم تحتكرها للإسلام ، كما احتكرها الرومان

لوثنيتهم - عندما كانوا وثنيين - ولمذهبهم النصراني - عندما تنصَّروا - .. وكما احتكرها الصليبيون الكاثوليك - إبان الاحتلال الصليبي - .. وكما يحتكرها اليهود ويُهَوِّدُونها هذه الأيام ..

وكما كانت العقيدة الإسلامية - التي تفرَّدت وتميزت وامتازت بالاعتراف بالآخرين .. وبحماية مقدساتهم - انطلاقًا من تعهد رسول الله ﷺ في عهده مع نصارى نجران سنة ١٠ هـ - ٦٣١ م - بحمايتهم وحماية مقدساتهم : « **وأن أحمي جانبهم وأذبّ عنه ، وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم ، ومواضع الرهبان ، ومواطن السياح حيث كانوا .. وأن أحرس ملتهم ودينهم ، أين كانوا .. بما أحفظ به نفسي وخاصتي ، وأهل الإسلام من مِلَّتي** »[١] .

ومن ثم أشاع الإسلام والمسلمون قدسية القدس بين كل أصحاب المقدسات .. فلقد كانت الأساطير النصرانية واليهودية هي المنطلق لغزو القدس .. ولاحتكارها .. بالإبادة والمجازر التي تقشعر منها الأبدان .

فأساطير التعصب الصليبي هي التي دفعت البابا الذهبي « أوربان الثاني » [١٠٨٨ - ١٠٩٩ م] لتغليف الأطماع الاستعمارية بالأساطير اللاهوتية .. فخطب في أُمراء الإقطاع الأوربيين - بمدينة « كليرومونت » بجنوبي فرنسا - سنة ١٠٩٥ م - مُفتتحًا قرنين من الحروب الصليبية [٤٨٩ -

---

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص ١٢٣ ، ١٢٤ . تحقيق : د. محمد حميد الله الحيدر آبادي - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

٦٩٠ هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١] ضد الإسلام وأمته وحضارته .. فقال :

« يامن كنتم لصوصًا كونوا اليوم جنودًا .. ! لقد آن الزمان الذي فيه تحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض .. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن .. هي .. في حق الله عينه .. وليست هي لاكتساب مدينة واحدة .. بل هي أقاليم آسيا بجملتها ، مع غناها وخزاينها العديمة الإحصاء ..

فاتخذوا محجّة القبر المقدس ، وخلّصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين ، وأنتم املكوها لذواتكم ، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبنًا وعسلًا .. ومدينة أورشليم هي قُطب الأرض المذكورة والأمكنة المخصبة المشابهة فردوسًا سماويًا ..

اذهبوا وحاربوا البربر - يقصد المسلمين ! - لتخليص الأراضي المقدسة من استيلائهم .. امضوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية - أي مفاتيح الجنة التي صنعها البابا ! - واكتسبوا بها لذواتكم خزاين المكافآت السماوية الأبدية . فإذا أنتم انتصرتم على أعدايكم ، فالملك الشرقي يكون لكم قسمًا وميراثا . وهذا هو الحين الذي فيه أنتم تفدون عن كثرة الاغتصابات التي مارستموها عدوانًا .. من حيث أنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلمًا ، فاغسلوها بدم غير المؤمنين » !![١] .

---

(١) مكسيموس مونروند [تاريخ الحروب المقدسة في الشرق ، المدعوة حرب الصليب] المجلد الأول ص ١٢ - ١٤ ترجمة : مكسيموس مظلوم . طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥ م .

وعندما اقتحمت الجيوش الصليبية - يومئذ - مدينة القدس [٤٩٢ هـ ١٠٩٩ م] أبادوا جميع من بها من المسلمين - ومعهم اليهود - بالقتل والذبح والحرق .. حتى الذين احتموا بمسجد عمر - مسجد قبة الصخرة - ذبحهم الصليبيون في المسجد .. حتى تحوّل المسجد إلى بحر من الدماء ! .. وبعبارة صاحب [حرب الصليب] :

« **فإن الصليبيين - خيّالة ومشاة - قد دخلوا الجامع المذكور ، وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك .. حتى استوعب الجامع من الدم بحرًا متموجًا ، علا إلى حد الركب ، بل إلى لُجُم الخيل ! ..**

ولما حلّ المساء ، اندفع الصليبيون يبكون من فرط الضحك - [!!] - بعد أن أتوا على نبيذ المعاصر - [!!] - إلى كنيسة القيامة ، ووضعوا أكفهم الغارقة في الدماء على جدرانها ورددوا الصلوات !! .. ثم كتبوا إلى البابا فقالوا له : يا ليتك كنت معنا لتشهد خيولنا وهي تسبح في دماء الكفار - [أي المسلمين] ! »[١] .

وحتى كبار رجال الدين .. شاركوا في المذبحة .. ليتقربوا إلى ربهم بذبح المسلمين !! .. ولقد نقلت المستشرقة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكة [١٩١٣ - ١٩٩٩ م] عن المؤرخ الأوربي « ميشائيل د. سيرر » :

« كيف كان البطريرك نفسه يعدو في أزقة بيت المقدس ، وسيفه يقطر دماء حاصدًا به كل من وجده في طريقه ، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر

---

(١) المصدر السابق ، المجلد الأول ص ١٧٢ - ١٧٥ .

المسيح ، فأخذ في غسل يديه تخلصًا من الدماء اللاصقة بها ، مرددًا المزمور الثاني : « يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار . ويغسلوا أقدامهم بدمهم ، فيقول الناس : حقا إن للصديق مكافأة ، وإن في الأرض إلهًا يقضي » - [المزمور ٥٨ - ١٠ - ١١] - ثم أخذ في أداء القداس قائلا : إنه لم يتقدم في حياته للرب بأي قربان أعظم من ذلك ليرضي الرب » !!(١) .

هكذا بدأت الأساطير النصرانية حول القدس .. وهكذا وضعها الصليبيون في الممارسة والتطبيق .

وهذه الأساطير النصرانية هي التي دفعت « كريستوفر كولمبس [١٤٥١ - ١٥٠٦ م] - بعد هزيمة الحملات الصليبية في الشرق .. وعقب نجاح الصليبيين في إسقاط غرناطة في يناير سنة ١٤٩٢ م - إلى أن يسعى إلى القيام بغزوة صليبية جديدة يعيد بها اختطاف القدس من الإسلام والمسلمين .. فكتب إلى ملكي أسبانيا « فرديناند » [١٤٧٩ - ١٥١٦ م] و « إيزابيلا » [١٤٧٤ - ١٥٠٤ م] يقول : « إن هدفه هو العثور على الذهب بكميات كبيرة ، حتى يتسنى للملكين أن يفتحا الديار المقدسة خلال ثلاث سنوات .. فقد أعلنتُ لسموكما أن كل المغانم التي سيدرّها مشروعي هذا سوف تنفق على فتح القدس . وقد

---

(١) سيجريد هونكة [الله ليس كذلك] ص ٢٥ - ٣٤ . ترجمة : د. غريب محمد غريب . طبعة دار الشروق القاهرة سنة ١٩٩٥ م .

ابتسمتا - يا صاحبي الجلالة - وقلتما : إن ذلك يسركما .. »[١] .

وفي رسالة ثانية تحدث « كولمبس » إلى ملكي إسبانيا عن أن هدف حياته ومشاريعه ورحلاته هو تجهيز حملة صليبية لإعادة القدس إلى الكنيسة الكاثوليكية .. فقال : « لقد مكثت في بلاطكم سبعة أعوام مناقشًا هذا الأمر مع العديد من الرجال .. ولهذا فيجب علينا أن نؤمن بأن أمر القيام بحملة صليبية لاستعادة مدينة القدس ، لهو أمر سوف يتحقق بالفعل .. لقد قال به يسوع المسيح المخلص ، وذكره من قبل عَبْرَ رسالة المقدسين .. لقد ذكر الكاردينال « بيير » الكثير عن نهاية المسلمين ، كما أن الأب « يواقيم الفيوري » قد ذكر أن الشخص الذي سيقوم بإعادة بناء الضريح المقدس للمسيح ، فوق جبل صهيون بالقدس ، سوف يخرج من إسبانيا .. فلتكونوا واثقين من إحراز النصر في مسألة استعادة الضريح المقدس ومدينة القدس إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية » ![٢]

تلك هي الأساطير النصرانية - حول القدس - كما آمن بها « كرستوفر كولمبس » - الذي لانزال ندرسه لأبنائنا في المدارس باعتباره

---

(١) صحيفة [الأهرام] في ٢٨ - ٤ - ٢٠٠٤ م مقال [أول إسرائيل آخر أمريكا] لأحمد عبد المعطي حجازي .

(٢) د. حاتم الطحاوي [وثيقة نادرة : بعد غرناطة جاء دور القدس] - مجلة [العربي] - الكويت - العدد ٥٣٢ - مارس سنة ٢٠٠٣ - ص ٦٢ - ٦٧ م.

من عظماء المستكشفين الجغرافيين !!

ولقد أدخلت البروتستانتية « البعد اليهودي » إلى هذه الأساطير - المحركة لاختطاف القدس وفلسطين - وذلك عندما أصدر « مارتن لوثر » [١٤٨٣ - ١٥٤٦ م] سنة ١٥٢٣ م كتابه [المسيح يهوديًا] وقال فيه : **« إن الروح القدس أنزل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم . إن اليهود هم أبناء الله ، ونحن الضيوف والغرباء ، ولذلك فإن علينا أن نرض بأن نكون كالكلاب التي تأكل مما يتساقط من فتات مائدة أسيادها »** [(١)] .

ولقد أدخلت البروتستانتية إلى صميم العقيدة المسيحية ثلاثة مبادئ - هي ثلاثة أساطير - دمجت البعد اليهودي في البعد النصراني إزاء قضية القدس وفلسطين .. وهذه « المبادئ - الأساطير » هي :

أولا : أن اليهود هم أبناء الله وشعبه المختار .

ثانيا : أن ثمة ميثاقًا إلهيًا يربط اليهود بالأرض المقدسة في فلسطين .

ثالثا : ربط الإيمان المسيحي بعودة المسيح بقيام دولة صهيون .

وهذه « المبادئ - الأساطير » هي التي أثمرت تيار « المسيحية - الصهيونية » في الحضارة الغربية .. ذلك التيار الذي استغلته الحركة الصهيونية في شراكتها مع الإمبريالية الغربية .. والذي قال عنه « بنيامين نتنياهو » - عندما كان سفيرًا للكيان الصهيوني بالأمم المتحدة - في

---

(١) محمد السماك [الأصولية الإنجيلية أو الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكي] ص ٣٦ . طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي - مالطا - سنة ١٩٩١ م .

خطابه أمام الجمعية العامة في فبراير سنة ١٩٨٥ م :

« أن كتابات المسيحيين الصهيونيين - من الإنجليز والأمريكان - أثرت بصورة مباشرة على تفكير قادة تاريخيين ، مثل « لويد جورج » [١٨٦٣ - ١٩٤٥ م] و « أرثر بلفور » [١٨٤٨ - ١٩٣٠ م] و « ودروولسون » [١٨٥٦ - ١٩٢٤ م] في مطلع القرن العشرين . إن حلم اللقاء العظيم - [عودة المسيح] أضاء شعلة خيال هؤلاء الرجال ، الذين لعبوا دورا رئيسيًا في إرساء القواعد السياسية والدولية لإحياء الدولة اليهودية .. لقد تفجر الحلم اليهودي من خلال المسيحيين الصهيونيين » !(١) .

وهكذا غدت الأساطير المسيحية تيارًا « مسيحيًا - صهيونيًا » ، تحالفت معه الحركة الصهيونية الحديثة ، مستغلة إياه لتحقيق أطماع الشراكة « الصليبية - الصهيونية » ضد القدس وفلسطين ! ..

ومع مطالع الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة - التي قادها « بونابرت » [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] على مصر والشرق [١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م] رمى بونابرت حبال الشراكة للأقليات اليهودية ، لتكون عونًا له على إقامة إمبراطوريته الاستعمارية في الشرق الإسلامي ، مقابل زرعهم - ككلاب

(١) محمد السماك [الدين في القرار الأمريكي] ص ٧٨ طبعة بيروت سنة ٢٠٠٣ م ، وجريس هالسل [النبوءة والسياسة] ص ١٤٠ ترجمة محمد السماك . طبعة ليبيا سنة ١٩٨٩ م .

حراسة - في أرض فلسطين .. ولذلك أصدر - وهو على أسوار عكا - سنة ١٧٩٩ م نداءه لهؤلاء اليهود .. والذي قال فيه : « أيها الشعب الفريد ! .. إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن ، حاملة إرث إسرائيل .. إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به .. قد اختار القدس مقرًا لقيادته ، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق التي استهانت طويلًا بمدينة داود ، وأذلتها ! .. يا ورثة فلسطين الشرعيين ! إن الأمة الفرنسية .. تدعوكم إلى إرثكم ، بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء »[1] .

وبعد هزيمة بونابرت .. وتبخر أحلامه الاستعمارية في لهيب الثورات المصرية وحرارة تضحياتها .. تسلم الاستعمار الإنجليز قيادة المشروع الغربي لاستعمار الشرق الإسلامي ، واختطاف القدس .. مغلفًا تلك الأطماع الإمبريالية بالأساطير الدينية والأوهام اللاهوتية - التي استخدمت بمثابة « العقيدة القتالية » في الصراع التاريخي بين الغرب والإسلام ..

١- ففي سنة ١٦٤٩م قدم لاهوتيان أنجليكانيان - هما « جوانا » و « البنزر كارترايت » - نداء إلى الحكومة الإنجليزية ؛ لإقامة شراكة مع اليهود في مشروع الاستيلاء على القدس وفلسطين .. وذلك كي يكون للبروتستانت الإنجليز والهولنديين « شرف نقل اليهود إلى الأرض التي وعد

---

(١) د. محمد عمارة [في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام] ص ٢١ طبعة مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة ٢٠٠٣ م .

الله بها أجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ومنحهم إياها إرثًا أبديًّا » ![1].

٢- وفي سنة ١٨٣٨م أنشأت إنجلترا أول قنصلية إنجليزية في القدس . وعينت قسيسًا بروتستانتيًّا نائبًا لقنصلها فيها ! ..

٣- وفي سنة ١٨٣٩م نشر اللورد الإنجليزي « آشلي كوبر » - (إيرل شافستبرى) - [١٨٠١ - ١٨٨٥ م] دراسته التي يقول فيها :

« إن اليهود هم الأمل في تجدد المسيحية ، وعودة المسيح ثانية ليحكم العالم ألف سنة سعيدة ! ... » .

٤- وفي سنة ١٨٣٩م أرسل سكرتير البحرية الإنجليزية إلى وزير الخارجية « بالمرستون » [١٧٨٤ - ١٨٦٥ م] رسالة يقترح فيها : دعوة أوربا للاقتداء بالملك الفارسي « قورش » [٥٥٧ - ٥٢٨ ق . م] وإعادة اليهود إلى فلسطين ، كما سبق وأعادهم « قورش » من السبي القديم ! ..

٥- وفي سنة ١٨٤٠م طلب وزير الخارجية الإنجليزي « اللورد بالمرستون » من سفيره في الآستانة السعي لدى السلطان العثماني لإعادة اليهود إلى فلسطين ، ليكونوا حاجزًا ضد تجديد وحدة الشرق ، الذي كان يعمل له محمد علي باشا الكبير [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م] .. وجاء في مذكرة « بالمرستون » :

« ويكون من مصلحة السلطان الواضحة ، أن يشجع اليهود على العودة إلى فلسطين .. ليكونوا حجر عثرة في سبيل أي أهداف تخطر

---

(١) [الأصولية الإنجيلية ، أو الصهيونية المسيحية] ص ٣٦ ، ٣٩ .

ببال محمد علي أو من يخلفه » ![(١)] .

٦- وفي سنة ١٨٤٠م قدم اللورد الإنجليزي « شافتسبرى » برنامجًا إلى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود في فلسطين ، على قاعدة : « أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » ! - وهي القاعدة التي تبنتها الشراكة : « الصليبية - الصهيونية » لاغتصاب القدس وفلسطين ..

٧- وفي سنة ١٨٤٤م ألّف البرلمان الإنجليزي لجنة « إعادة أمة اليهود إلى فلسطين » ! ..

٨- وفي سنة ١٨٨٢م ذهب القس الإنجليزي « وليم هشلر » [١٨٤٥ - ١٩٣١م] إلى السلطان عبد الحميد الثاني [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] في القسطنطينية ، محاولاً إقناعه بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين .

٩- وفي نفس العام - سنة ١٨٨٢م - عُقد في إنجلترا المؤتمر الأول لرجال الدين المسيحيين ، من أجل « إيجاد حل للمسألة اليهودية » ! .

١٠- وفي سنة ١٨٩٤م صدر كتاب الدبلوماسي الإنجليزي ، القس « وليم هشلر » : [إعادة اليهود إلى فلسطين] تنفيذًا للنبوءات الدينية !

١١- وفي ٢نوفمبر سنة ١٩١٧م صدر وعد « جيمس بلفور »

---

(١) جورج كيرك [موجز تاريخ الشرق الأوسط] - ترجمة عمر الإسكندري - مشروع الألف كتاب - القاهرة .. و : د. محمد عمارة [إسرائيل : هل هي سامية ؟] ص ١٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

[١٨٤٨ - ١٩٣٠ م] وزير الخارجية الإنجليزي إلى المليونير الصهيوني « لورد روتشيلد » [١٨٤٥ - ١٩٣٤ م] بإقامة الوطن القومي اليهودي على أرض فلسطين .. وهو الوعد الذي وضعه الانتداب البريطاني في الممارسة والتطبيق .

فدخل الجيش الإنجليزي إلى القدس سنة ١٩١٧ بقيادة الجنرال « اللنبي » [١٨٦١ - ١٩٣٦ م] .. ويومها قال كلمته الشهيرة : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » ! ..

ويومها نشرت مجلة « بنش » Punch - الإنجليزية - رسمًا « كاريكاتوريًا » موحيا .. ظهر فيه الملك الصليبي الإنجليزي « ريشارد قلب الأسد » وهو يقول : « أخيرًا تحقق حلمي » ! .. وهكذا « عانقت » الأساطير الدينية البروتستانتية » و « حركت » الأطماع الإمبريالية في اختطاف القدس وفلسطين ..

ثم جاء الدور الأمريكي - الوارث للإمبراطوريات الاستعمارية الغربية القديمة - فأقام « توأمة » مع المشروع الصهيوني ، انطلاقًا من الأساطير البروتستانتية :

١ - فالمستوطنون البيض - الآباء المؤسسون - الذين استعمروا أمريكا .. وأبادوا الهنود الحمر - قد اعتبروا أنفسهم بعثًا لبني إسرائيل عند خروجهم من مصر إلى أرض كنعان .. فالملك جيمس الأول [١٥٦٦ - ١٦٢٥ م] ملك إنجلترا - الذي خرجوا من بلاده اعتبروه [فرعون] .. وأنهم خرجوا إلى « كنعان الجديدة » و « القدس

الجديدة » .. فهم – من ثم – شعب الله المختار .. ذهبوا إلى أرض بلا شعب لتكون وطنًا لشعب بلا أرض] .

٢ – ولقد أطلق هؤلاء المستوطنون البروتستانت على بقاع البلاد التي غزوها أسماء عبرانية – مثل « حبرون » و « كنعان » .. كما أطلقوا على مواليدهم أسماء عبرانية – مثل « أبراهام » و « سارة » و « ألعازر » وفرضوا تعليم اللغة العبرية في مدارسهم وجامعاتهم .. حتى أن أول دكتوراة منحتها جامعة « هارفارد » سنة ١٦٤٢ م كان عنوانها « العبرية هي اللغة الأم » ! .. وأول كتاب صدر في أمريكا هو [سفر المزامير] .. وأول مجلة صدرت حملت عنوان « اليهودي »] .. كما أطلقوا على نهر كولورادو الاسم التوراتي القديم « باشان » ! .. وسمحوا ببناء المعابد اليهودية في أمريكا هذه قبل السماح ببناء كنائس الكاثوليك ! ..

وهكذا تمت « توأمة » أمريكا مع بني إسرائيل .. وتأسست الدولة الداعمة للإحياء اليهودي والصهيوني في القدس وفلسطين ! ..

٣ – ولقد تخلقت في هذا المناخ .. وبين الأمريكان الذين سموا أنفسهم « أطفال إسرائيل Childern Of Israel » أساطير المسيحية الصهيونية ، التي تؤمن بأن مجيء المسيح يجب أن ينتظر عودة الدولة اليهودية ومن ثم عملوا ذلك منذ فجر تأسيسهم لهذا البلد – أمريكا – ..

٤ – ولقد تبنى القس الأمريكي « جوزيف سمث » [١٨٠٥ – ١٨٤٤ م] – مؤسس الكنيسة المرمونية – نظرية البعث اليهودي في فلسطين .. ولحق به كوكبة من ألمع اللاهوتيين الإنجليين – مثل

« سايروس سكوفيلد » و « وليم بلاكستون » [١٨٤١ - ١٩٣٥ م] و « وردرجريسون » - والذين عملوا على بناء المستوطنات اليهودية في أرض فلسطين ! ..

٥ - كما أنشأ « بلاكستون » « البعثة العبرية من أجل إسرائيل » - المستمرة حتى الآن باسم « الزمالة اليسوعية الأمريكية » - والتي تُمثِّل نواة جهاز الضغط - Lobby - الصهيوني في أمريكا .

٦ - وفي سنة ١٨١٨ طالب الرئيس الأمريكي « جون آدمز » [١٧٣٥ - ١٨٢٦ م] باستعادة اليهود لفلسطين ، وإقامة حكومة يهودية مستقلة فيها ! ..

٧ - وفي سنة ١٨٦٦ م أرسلت البروتستانتية الأمريكية أولى البعثات الاستيطانية إلى أرض فلسطين ، يقودها القس « آدم » ، ومعه ١٥٠ قسيسًا أمريكيًا .. وفي العام التالي - سنة ١٨٦٧ م - قامت على أرض فلسطين أولى المستوطنات الأمريكية ، بمشاركة ٧٠ شخصية دينية ، من المسيحيين الصهاينة ! ..

٨ - وفي سنة ١٨٧٨ قام القس الأمريكي « وليم بلاكستون » [١٨٤١ - ١٩٣٥ م] بالتنظير اللاهوتي « للمسيحية - الصهيونية » ، ولاغتصاب القدس وفلسطين ، وذلك بكتابه [المسيح آت] - وهو الكتاب الذي ترجم إلى أربعين لغة .. وأصبح الأكثر انتشارًا في القرن التاسع عشر بعد الكتاب المقدس ! ..

وعندما زار « بلاكستون » فلسطين سنة ١٨٨٨ م رفع شعار :

« أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » ! .. وذلك قبل عشر سنوات من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول .. وقبل تأليف « تيودرهرتزل » [١٨٦٠ - ١٩٠٤ م] لكتابة [الدولة اليهودية] سنة ١٨٩٦ م .. أي أن المسيحية الصهيونية - البروتستانتية هي التي ابتدأت التسويق للمشروع الصهيوني على أرض فلسطين حتى قبل أن يتبناه اليهود ! ..

٩ - وانطلاقًا من الأساطير الدينية البروتستانتية أصبح المشروع الصهيوني - وكيانه إسرائيل - تجليًا إلهيًا ، يمهد لعودة « الرب . يسوع » .. وليس كيانًا سياسيًا يحاسب كما تحاسب الدول ، ويخضع - مثلها - للقانون ! ولقد عبّر القس الأمريكي « والتريجانز » عن هذه النظرية اللاهوتية بقوله : « إن الصهيونية التوراتية ، التي هي بالتأكيد أمنية كل مسيحي ، تتعلق بشكل أساسي بالله وبأهدافه . ولذلك تفهم الصهيونية ، من خلال الرؤية المسيحية ، على أنها جزء من اللاهوت الديني ، وليست جزءًا من السياسة ، وإن دولة إسرائيل هي مجرد البداية لما يفعله الله من أجل الشعب اليهودي ومن خلال الشعب اليهودي . إن من واجب المسيحين دعم إسرائيل وسياستها باعتبارها إشارة إلهية لرحمة الله ، واستجابة لإرادته ، على أنها تشكل إشارة توراتية بأن الله منشغل جدًا في قضايا هذا العالم » ![1] .

---

(١) محمد السماك [الدين في القرار الأمريكي] ص ٢٦ ، ٢٧ طبعة بيروت سنة ٢٠٠٣ م .

١٠ - ولأن الأمر دين ولاهوت - وليس مجرد سياسة إمبريالية - كان الالتزام الأمريكي نحو إسرائيل - بكل السبل .. من المال .. إلى السلاح .. إلى الفيتو - على النحو الذي يستغرب به الذين لا يعلمون !! .. كما كان الضغط على صُنّاع القرار لوضع هذا الدين - المسيحي الصهيوني - في الممارسة والتطبيق .

فالقس « وليم بلاكستون » - في سنة ١٨٩١ م - يجمع توقيعات ٤١٣ شخصية مسيحية ويهودية على مذكرة تطلب من الرئيس الأمريكي « بنجامين هاريسون » [١٨٣٣ - ١٩٠١ م] عقد مؤتمر دولي من أجل إعادة اليهود إلى فلسطين .. ومن بين الذين وقعوا على هذه المذكرة « جون روكفلر » [١٨٣٩ - ١٩٣٧ م] و « وليم روكفلر » [١٨٤١ - ١٩٢٢ م] ..[1] .

١١ - وفي سنة ١٩١٨ أعلن الرئيس الأمريكي « ويلسون » [١٨٥٦ - ١٩٢٤ م] التزام أمريكا بتنفيذ وعد بلفور . ثم صادقت أمريكا هذا الوعد رسميًا سنة ١٩٢٢ م .. وقرر مجلس النواب الأمريكي « منح اليهود الفرصة التي حرموا منها لإعادة إقامة حياة يهودية وثقافية خاصة في الأرض اليهودية القديمة » ! ..

١٢ - وفي إدارة الرئيس الأمريكي « روزفلت » [١٨٥٨ - ١٩١٩ م] أصبح اليهود - الذين يشكلون أقل من ٣ ٪ من سكان أمريكا -

(١) المرجع السابق . ص ٣٣ ، ٣٤ .

يسيطرون على ١٥ ٪ من المناصب القيادية القابضة على المواقع الحساسة في الدولة الأمريكية ![(١)]

١٣ - وأصبحت الصهيونية المسيحية - أو المسيحية الصهيونية - العقيدة المحركة للقيادات الأمريكية ..

• فالرئيس الأمريكي « **ليندون جونسون** » [١٩٠٨ - ١٩٧٣ م] يخطب سنة ١٩٦٨ م في إحدى المنظمات اليهودية فيقول : « **إن لأكثركم ، إن لم يكن لجميعكم ، روابط عميقة مع أرض ومع شعب إسرائيل ، كما هو الأمر بالنسبة إليّ ، ذلك لأن إيماني المسيحي انطلق من إيمانكم . إن القصص التوراتية محبوكة مع ذكريات طفولتي ، كما أن الكفاح الشجاع الذي قام به اليهود المعاصرون من أجل التحرر من الإبادة منغمس في نفوسنا** » ! .

• والرئيس الأمريكي « **جيمي كارتر** » [١٩٤٢ -] - الذي يعتنق عقيدة « الولادة الثانية » يعترف بأن مشاعره المؤيدة للصهيونية كانت الموجه لسياسته الشرق أوسطية .. فيقول في خطاب الأول من مايو سنة ١٩٧٨ م . « **إن العودة إلى أرض التوراة التي أخرج منها اليهود منذ مئات السنين ، وإن إقامة الأمة الإسرائيلية في أرضها ، هو تحقيق لنبوءة توراتية ، وهي تشكل جوهر هذه النبوءة** » !

• والرئيس الأمريكي « **رنالد ريجان** » [١٩١١ - ٢٠٠٤ م] هو

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨١ .

القائل سنة ١٩٨٤ م : « إنني أعود إلى النبوءات القديمة المذكورة في العهد القديم ، وإلى المؤشرات حول هرمجيدون ، فأتساءل بيني وبين نفسي : ما كنا الجيل الذي سيرى تحقق ذلك ؟ .. إن هذه النبوءات تصف بالتأكيد ما نمر به الآن » !![١] .

١٤ - ويقرر الكونجرس الأمريكي - في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٩٥ م : اعتبار القدس عاصمة أبدية لإسرائيل ، لأنها - كما يقول - : « الوطن الروحي لليهودية » ! ..

وتشرع الحكومة الأمريكية - بعد هذا القرار - في بناء سفارتها بالقدس على أرض مملوكة للوقف الخيري الإسلامي !

١٥ - وحتى الغزو الأمريكي للعراق - في مارس سنة ٢٠٠٣ م - يعتبره الرئيس الأمريكي « بوش - الصغير » حربًا مقدسة عادلة بمقاييس القديس « أوغسطين » [٣٥٤ - ٤٣٠ م] والقديس « توما الأكويني » [١٢٢٥ - ١٢٧٤ م][٢] .. وهي للقضاء على صدام حسين - بختنصر بابل الذي يهدد إسرائيل ، ويعرقل عودة المسيح !! ..

« وفي هذا التنظير المسيحي الصهيوني يقول القس الأمريكي « دافيد بريكنر » : « إننا نعرف أن تدمير بابل ـ الذي ورد في الإصحاح ١٨ ـ يعني تدمير العراق » !! ..

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) مجلة « نيوزويك » - الأمريكية - الطبعة العربية - عدد ١١ - ٣ - ٢٠٠٣ م .

« كما يقول القس « تشارلز داير » - أستاذ اللاهوت في جامعة « دالس » :
« إن إصحاح إشعيا ١٣ يشير إلى قيام صدام حسين ، وإلى غزوه للكويت وذلك لإقامة قاعدة للهجوم على إسرائيل .. فصدام هو خليفة « بوخذ نصر » [٦٠٥ - ٥٦٢ ق . م] (الذي هزم الإسرائيليين وسباهم إلى بابل ودمر الهيكل) وذلك بسبب عداء صدام لإسرائيل ، وبسبب نواياه لإعادة بناء بابل »[1] ! .

وهكذا نظرت الأساطير المسيحية الصهيونية لدمار العراق على يد « بوش الصغير » - هولاكو القرن الواحد والعشرين - دمارًا فاق ما صنعه هولاكو القديم .. « هولاكو » المغول [٦١٤ - ٦٦٣ هـ ١٢١٧ - ١٢٦٥ م] ..

١٦ - وفي إبريل سنة ٢٠٠٤ م يعطي « بوش - الصغير » لأريل شارون - رئيس وزراء إسرائيل - « رسالة الضمانات » التي تحرم اللاجئين الفلسطينيين من حق العودة - الذي قررته الشرعية الدولية بالقرار ١٩٤ - .. وهي « الرسالة » التي تفوقت على وعد « بلفور » سنة ١٩١٧ م .. إذ حرمت الفلسطينيين حتى من « الحقوق المدنية والدينية » التي نص عليها وعد بلفور ! .

١٧- وفي الذكرى الستين لقيام الكيان الصهيوني - مايو سنة ٢٠٠٨ م - يخطب « بوش - الصغير » بالكنيست الصهيوني خطابًا توراتيًا .. يقرر فيه أن إسرائيل ليست ٧,٠٠٠,٠٠٠ نسمة .. وإنما هي ٣٠٧,٠٠٠,٠٠٠

---

(١) الدين في القرار الأمريكي - ص ٥٢ .

نسمة .. لأن أمريكا هي جزء متمم لإسرائيل !! ..[١] .. كما يقرر يهودية الدولة العبرية أي التشريع لطرد العرب الذين يعيشون فيها ! .

تلك هي الأساطير الدينية النصرانية « المغلفة .. والمحركة » للأهداف الاستعمارية الغربية من وراء استعمار الشرق ونهب ثرواته واختطاف القدس وفلسطين ..

أما عن الأساطير اليهودية ، التي تزعم أن لليهود حقوقًا في القدس وفلسطين .. فيكفي لتفنيدها ودحضها - بالمنطق العقلاني - والعقلانية المنطقية - أن نقول :

إن اليهودية - التي ينتسبون إليها - هي شريعة موسى - عليه السلام - التي جاءت بها التوراة - وموسى - عليه السلام - ولد .. ونشأ .. وبُعث في مصر .. ونزلت عليه التوراة - بمصر - باللغة الهيروغليفية - ثم مات ودفن بمصر - قبل غزو بني إسرائيل لأرض كنعان - فلسطين - وقبل نشأة اللغة .. العبرية - التي هي في الأصل لهجة كنعانية .. فموسى - عليه السلام - لم يدخل فلسطين ، ولم تر عينه القدس .. ومن ثم فلا علاقة لليهودية - وشريعة موسى - بالقدس ولا بفلسطين ..

وإذا كانوا يقولون إنهم يُصلُّون إلى القدس .. كما يصلي المسلمون إلى مكة .. فإننا نقول : إن الصلاة إلى بلد لا تستدعي ولا تتطلب ولا تبرر

---

(١) انظر تفاصيل هذه الحقائق - وأمثالها - بكتابنا [في فقه الصراع على القدس وفلسطين] طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ٢٠٠٥ م .

الاستيلاء عليه .. فكل المسيحيين - من كل الأقطار والقارات والقوميات - يصلون إلى القدس ، دون أن يكون ذلك داعيًا ولا مستلزمًا ولا مبررًا لأن يخرجوا من بلادهم ويحتلوا القدس ! ..

وكل المسلمين - من كل الأقطار والقارات والقوميات - يصلون إلى مكة المكرمة ، دون أن يكون ذلك داعيًا ولا مستلزمًا ولا مبررًا لأن يحتل هؤلاء المسلمون الحرم الذي إليه يتوجهون ! ..

وإذا كان تفرد الإسلام بالاعتراف بكل الآخرين ، وحماية عقائدهم ومقدساتهم .. وإذا كان التاريخ الإسلامي في القدس قد طبّق وجسّد هذه الحقيقة .. فإن عروبة القدس وإسلاميتها هي الضمانة لإشاعة قدسيتها لكل أصحاب المقدسات .. وللنأى بها عن الاحتكار من قبل أهل دين من الأديان..

ولقد لخّص هذه الحقيقة - حقيقة إسلامية القدس وعروبتها ، الضامنة لإشاعة قدسيتها بين كل أصحاب المقدسات - صلاح الدين الأيوبي - الذي استرد أمانة عمر من الصليبيين - وذلك عندما كتب إلى الملك الصليبي « ريتشارد قلب الأسد » [١١٥٧ - ١١٩٩ م] فقال :

« القدس إرثنا كما هي إرثكم .. من القدس عرج نبينا إلى السماء .. وفي القدس تجتمع الملائكة .. لا تفكر بأنه يمكن لنا أن نتخلى عنها كأمة مسلمة . أما بالنسبة إلى الأرض ، فإن احتلالكم فيها كان شيئًا عرضيًا ، وحدث لأن المسلمين الذين عاشوا في البلاد حينها كانوا ضعفاء .. ولن يمكنكم الله أن

تشيدوا حجرًا واحدًا في هذه الأرض طالما استمرَّ الجهاد » ! ..

* * *

نعم .. هذا هو الطريق .. وهذا هو المنهاج ..

لقد بدَّدَ صلاح الدين الأيوبي - بالجهاد - أساطير الكاثوليكية الصَّليبية في التاريخ الوسيط للصراع .

وَبَدَّدَت ثورات مصر وتضحيات شعبها أساطير بونابرت وأحلامه مع مطلع العصر الحديث .

واليوم .. لا سبيل أمام أمتنا لتبديد أساطير المسيحية الصهيونية والعنصرية اليهودية إلا بالجهاد .. فهو « رهبانية » أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - ..

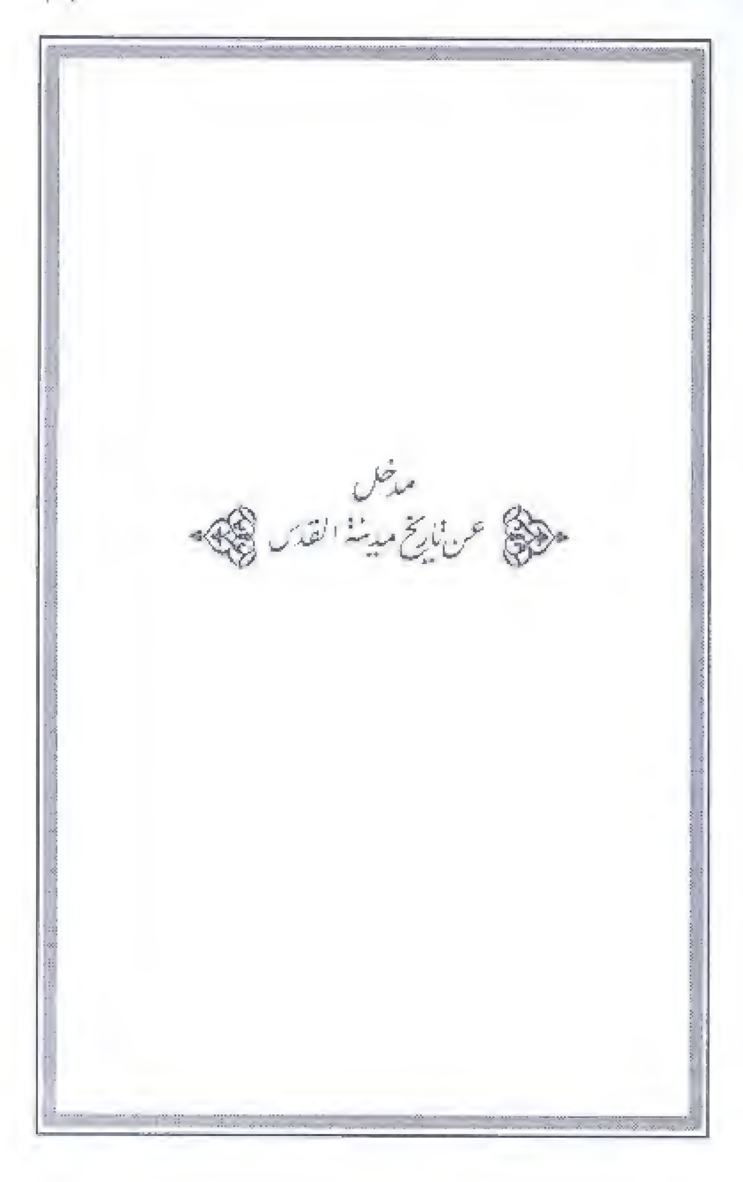
وإذا كان الوعي بتاريخ هذا الصراع الطويل هو لون من الجهاد ، لأنه سلاح من أمضى الأسلحة في مواجهة التحديات التي قامت وتقوم على أرض القدس وفلسطين .. فإننا نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل صفحات هذه الدراسة إسهامًا في استرداد أمانة عمر إلى أحضان العروبة والإسلام .. وصدق الله العظيم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٣٨ - ٤٠] .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين ، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء -[شدة ومحنة]- حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك » . قالوا : يا رسول الله : وأين هم ؟ .. قال : « ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس » رواه الإمام أحمد ..

تلك هي مكانة القدس في عقيدة الإسلام وحضارته وتاريخه .. وتلك هي أساطير الصليبية والمسيحية الصهيونية حول المدينة المقدسة ، التي كانت ، دائمًا وأبدًا - « رمز الصراع .. وبوابة الانتصارات » .

د. محمد عمارة

القاهرة في محرم ١٤٣٠هـ
يناير ٢٠٠٩م



مدخل
عن تاريخ مدينة القدس

في الألف الرابعة قبل الميلاد ، بنى الكنعانيون - أهل فلسطين - مدينة « يوروسالم » أو « يوروشالم » .. ومن اسمها هذا جاءت تسميتها الغربية Jerusslem في اللغات اليونانية واللاتينية والألمانية والفرنسية والإنجليزية وغيرها .. ومن هذا الاسم أيضًا جاءت تسميتها في « العهد القديم » بـ « أورشليم » .

ولقد بدأ تاريخ العبرانيين الاتصال بهذه المدينة الكنعانية ، عندما استولى عليها داود - عليه السلام - في القرن العاشر قبل الميلاد ، أي بعد نحو ثلاثة آلاف عام من تأسيسها على يد الكنعانيين ! .. ولم تدُم هذه السيطرة العبرية على هذه المدينة لأكثر من أربعة قرون - [٤١٥ عامًا] .. أي إلى التاريخ الذي هدمها فيه البابليون ، الذين أزالوا « مملكة يهوذا » من الوجود سنة ٥٨٥ ق . م وبدءوا حقبة « السبي البابلي » للعبرانيين .

وحتى بعد سماح الفرس لبعض العبرانيين بالعودة إلى أرض كنعان ، كانت عودة الذين عادوا منهم إليها ، عودة استيطان بلا دولة ، وبلا سيادة على مدينة « أورشليم » .

لكن هذا « الوجود اليهودي » قد عاد وأثار حفيظة الدولة الرومانية ، فدمروا هذه المدينة مرتين : الأولى على يد الإمبراطور « تيطوس » Titus [٣٩ - ٨١ م] في سنة ٧٠ م .. والثانية على

يد الإمبراطور « حدريانوس » سنة ١٣٥ م ، وذلك عندما محاها محوًا تامًا ، بل وغيَّرَ اسمها إلى « إيليا كابيتولينا » - أي إيليا العظمى - وهو الاسم الذي ظلّ عَلَمًا عليها حتى الفتح الإسلامي لها [١٥ هـ - ٦٣٦ م] في خلافة الراشد الثاني الفاروق عمر بن الخطاب [٤٠ ق . هـ - ٢٣هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] .

وفي السنوات الأربعمائة ، التي سيطر فيها العبرانيون على هذه المدينة : احتكروا قداستها لمقدساتهم وحدهم ، دون غيرهم من الشعوب التي كانت تقطن أرض كنعان في ذلك التاريخ ، وهي الشعوب التي بَنَتْ هذه المدينة قبل ثلاثة آلاف عام من دخول داود - عليه السلام - إليها . . وظلوا يمارسون هذا الاحتكار ، بل والاضطهاد ، مع النصرانية والنصارى ، منذ بعثة المسيح عيسى بن مريم ، عليه السلام .

وبعد تدين الدولة الرومانية بالنصرانية - [في القرن الرابع الميلادي] - كانت قدسية هذه المدينة - « إيليا » وقفًا على النصارى ، الذين اضطهدوا اليهود ، وجعلوا أماكن « هيكلهم » - بعد هدمه - مجمعًا للقمامة وللقاذورات ، تُجلب إليه من داخل المدينة وخارجها ! . . حتى لقد طلبوا من عمر بن الخطاب ، عند تسلمه للمدينة ، بعد فتحها ، أن يضمن لهم « ألا يساكنهم فيها أحد من اليهود » ! . .

ذلك هو تاريخ هذه المدينة قبل الإسلام .

لكن فتح الإسلام والمسلمين لهذه المدينة « يوروسالم – أورشليم – إيليا » كان بداية عصر جديد .

فالإسلام والمسلمون هم الذين أعطوا لهذه المدينة القداسة والقدسية ، حتى في اسمها الجديد ، فسميت بـ « بيت المقدس » و « القدس » منذ ذلك التاريخ .. ولأول مرة في تاريخها الديني ، تصبح قداستها عامة لجميع أمم الرسالات السماوية – اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام – وليست حكرًا لأبناء دين دون غيرهم من أبناء الديانات الأخرى ..

فأماكن المقدسات اليهودية المهدومة منذ قرون ، والتي جعلها النصارى – في العصر الروماني – « مجمعًا للقمامة والقاذورات » ، ذهب إليها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بعد أن تسلم المدينة ، وعقد مع أهلها « العهد العمري » الشهير ، « فوجد على الصخرة زبلاً كثيرًا ، مما طرحه الروم غيظًا لبني إسرائيل ، فبسط رداءه ، وجعل يكنس ذلك الزبل ، وجعل المسلمون يكنسون معه الزبل » وتتبع المسلمون أماكن عبادة الأنبياء السابقين واحدًا واحدًا ، ابتداء من إبراهيم إلى آخر من دُفِنَ منهم في فلسطين وبيت المقدس ، فأقاموا فيها المساجد ، وحافظوا على قدسيتها ، وطهروها تطهيرًا » – [د. إسحاق موسى الحسيني « مكانة بيت المقدس في الإسلام »

كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية – ص ٥٧ ، ٥٨ – سنة ١٩٦٨ م] .

لقد أحلَّ المسلمون هذه المدينة مكانًا فريدًا تميزت به عن كل المدن التي فتحوها ، وذلك عندما لم يتسلمها القائد الفاتح – وهو « أمين الأمة » أبو عبيدة بن الجراح [٤٠ ق هـ – ١٨ هـ/ ٥٨٤ – ١٦٣٩ م] – وكان تسليمها للخليفة عمر بن الخطاب ، الذي ركب من « المدينة المنورة » إليها ، ليتسلم أمانتها ، وليعقد بنفسه « العهد العمري » مع بطريركها « صفرونيوس » [١٧ هـ – ٦٣٨ م] .. ولتكون لها ، بهذه الخصوصية ، مكانة « أمانة الفاروق عمر » لدى أمة الإسلام ! .. وهو شَرَفٌ لم تحظ به مدينة من المدن التي فتحها المسلمون ، عَبْرَ تاريخ الفتوحات » .

وبتغير اسم هذه المدينة ، إلى « القدس » و « بيت المقدس » ، رفع المسلمون عليها رايات القدسية والتقديس .. وبتحرج عمر بن الخطاب – عندما كان يجلس مع « صفرونيوس » في كنيسة القيامة – من أن يصلي في الكنيسة ، رغم دعوة البطريرك ، كي لا تكون لمسلم شبهة حق في أرض الكنيسة يقيم فيها مسجدًا .. بهذا الموقف العمري أضفى عمر بن الخطاب تقديس الإسلام لمقدسات النصارى .. ولم يكن عمر في ذلك « مبتدعًا » ، بل ولا حتى

« مجتهدًا » ؛ لأنه هو المؤمن بالعقيدة الإسلامية ، التي لا تكتمل أركانها إلا بالإيمان بسائر الرسل وجميع الرسالات وكل الكتب التي سبقت رسالة محمد ﷺ على درب علاقة السماء بالإنسان ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ٢ - ٥] . ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] وهو - عمر - الذي يتعبد بالقرآن الكريم ، الذي عرض لمقدسات أمم الرسالات السماوية جميعًا ، فبدأ بالصوامع وانتهى بالمساجد ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

بهذا الموقف العمري ، بدأت الحقبة الإسلامية في تاريخ المدينة ، فغدت قداستها عامة لعامة أبناء رسالات السماء .. فكنيسة القيامة قدس خاص بالنصارى .. ومواطن المقدسات اليهودية ، أعاد إليها عمر والمسلمون الطهارة عندما رفعوا عنها القمامة والقاذورات ..

وارتفعت في المدينة عمائر المساجد الإسلامية .

صَنَعَ المسلمون ذلك ؛ لأنهم أمة الرسالة الخاتمة ، التي ورثت كل مواريث الأنبياء والمرسلين ، فكانت رسالة رسولهم اللبنة التي تممت بناء دين الله الواحد ، وحملت أمانة الحفاظ على سائر لبنات هذا البناء ، فأمة الشريعة التي أكملت الدين الإلهي الواحد ، هي الحاملة لأمانة الحفاظ على مقدسات سائر شرائع هذا الدين ، لأنها وحدها التي تعترف بشرعية سائر شرائع هذه الأديان .

* * *

والمسلمون صنعوا ذلك مع « القدس » تحديدًا ؛ لأن قرآنهم الكريم قد جعل الرباط بين « القدس » وبين « الحرم المكي » - الذي هو قبلة الأمة الخاتمة - آية من آيات الله ، وليس مجرد رباط سياسي أو إداري ، يقيمه فاتحون وينقضه غزاة ! .. ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] . فكان الإسراء - إسراء الله بعبده ورسوله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى - وعروجه من الصخرة إلى سدرة المنتهى ، الإعلان الإلهي عن خَتْم هذه الرحلة القدسية لخطوات الأنبياء والرسل على طريق الله ، وعن حمل أمة الرسالة الخاتمة أمانة الجهاد في سبيل

الحفاظ على مقدسات كل الرسالات ، تلك التي تجسدها مدينة القدس قبل غيرها ، وأكثر من غيرها من المدن والبقاع .

ولقد شهد التاريخ الإسلامي للقدس ، بأحرف من نور ، على وفاء الأمة الإسلامية بهذه الأمانة ، التي أرادها الله ، والتي رمزت إليها رحلة الإسراء ، والتي سلّمها إياها عمر بن الخطاب .. فغدت القدس ، منذ ذلك التاريخ ، مشاعة القداسة ، مفتوحة الأبواب لكل أبناء رسالات السماء .. ازدهرت فيها ، إلى جانب المساجد الإسلامية ، كنائس النصارى .. وأخذ اليهود يعودون إلى سكناها ، بعد أن حرموا من ذلك في العهد الروماني ، الوثني والنصراني على حدّ سواء ! .. بل لقد تولّت الأمة المسلمة المقدسية « نظارة الأوقاف » التي أوقفها النصارى على كنائسهم ، اختارهم النصارى لذلك ، فرعوا هذه المقدسات النصرانية على امتداد التاريخ الإسلامي .

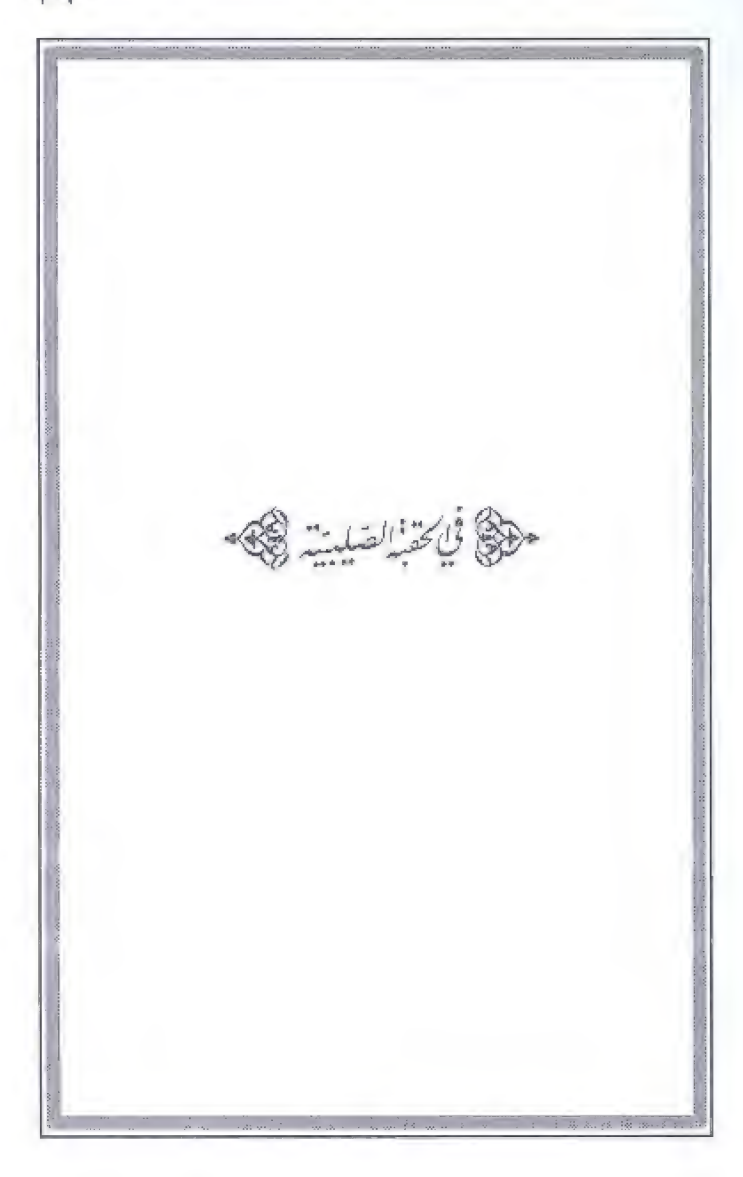
وشاء الله أن تظل هذه « الأمانة » من خصائص الأمة الإسلامية ، والدول الإسلامية دائمًا وأبدًا .

فطالما كانت السيادة على القدس لأمة الرسالة التي لا تحتكر التدين بدين الله .. ولا تحتكر النبوات والرسالات .. ولا تدفعها العنصرية إلى احتكار القدسية لأماكن عباداتها .. طالما ساد هذا الحال ، كانت الأبواب مفتوحة في القدس لكل أمم الرسالات .

أما في فترات تراجع هذا التوجه ، وهزيمة الدول الإسلامية : وانحسار سيادة المسلمين عن القدس – في الحقبة الصليبية القديمة .. والحقبة اليهودية المعاصرة – فإن الاحتكار لقداسة القدس يعود ليطل بوجهه الكئيب ! ..

حدَثَ ذلك ، في تاريخ القدس .. حتى لكأنه القانون ، الذي لا تبديل له ولا تحويل !! ..

۞ ۞ ۞ ۞



في الحقبة الصليبية

كان الضعف قد أصاب القوى الثلاث التي تقاسمت حكم الشرق الإسلامي : العباسيين .. والفاطميين .. والسلاجقة .. فانتهز الغرب الفرصة ليعيد سيطرته على الشرق ، تلك التي أقامها الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ ق . م] قبل الميلاد ، والتي أزاحتها فتوحات الإسلام ! .

وفي مدينة « كليرمونت » ، بجنوب فرنسا ، تكرس الحلف الغربي ، الذي قاده البابا الذهبي « أربان الثاني » [١٠٨٨ - ١٠٩٩ م] والذي مَوَّلته المدن التجارية الإيطالية ، الطامعة في السيطرة على طُرق التجارة الدولية العابرة للشرق الإسلامي ، وكانت القوة الضاربة لهذه الموجة الغازية هم فرسان الإقطاع الأوربيون .. الذين حدد لهم البابا مهمة الغزوة الصليبية ، عندما خاطبهم - في « كليرمونت » سنة ١٠٩٥ م فقال : « أنتم فرسان أقوياء ، ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم .. ولكن ، تعالوا وحاربوا الكفار - [المسلمين] .. يا من تنابذتم اتحدوا .. يامن كنتم لصوصًا كونوا الآن جنودًا .. تقدَّموا إلى البيت المقدس .. انتزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحتفظوها لأنفسكم ، فهي تدرُّ سمنًا وعسلاً ؟! .. إنكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق » ؟! ..

وهكذا .. رغم « البابوية » .. وأعلام الصليب .. والتهييج الديني ..

والحديث عن مهد المسيح .. فإن كلمات البابا أفصحت عن مقاصد « الغزوة - الصفقة ! » : وراثة ممالك الشرق ، التي تدر سمنًا وعسلاً ! .. وحلّ تناقضات أمراء الإقطاع ، بتوجيه قواهم لتدمير « المسلمين - الكفار » ! فبدأت في العام ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م أولى حملات الغزوة الصليبية ، التي دامت قرنين من الزمان .. والتي أصبح قَتْلُ المسلمين فيها ، ونهبُ بلادهم ، واحتلال أوطانهم ، وإقامة الإمارات والممالك اللاتينية في فلسطين وما حولها .. أصبح كل ذلك « مهنة - ووظيفة » لأمراء الإقطاع الأوربيين .. وبعبارة المؤرخ المسيحي « مكسيموس مونروند » -صاحب [حرب الصليب] - « فإن الكثير من الأشراف والعظماء صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة مهنة صناعية لاحتشاد - [جمع] - الأموال الغنية ، بل إن التعطش نحو أخذ الغنائم وحده كان يجذب الجيش إلى المحاربة » ؟! ..

ومع مطلع القرن الحادي عشر الميلادي كانت الإمارات الصليبية التي أقامها الغزاة في الشرق العربي قد قطعت الوحدة الأرضية لعالم الإسلام .. ففي شمال العراق وسوريا قامت إمارتا « الرها » و « أنطاكية » .. وبعد اقتحام القدس قامت « مملكة أورشليم » ، التي وصلت حدودها إلى خليج العقبة ؟! عازلة مصر والمغرب والأندلس عن مشرق وطن العروبة وعالم الإسلام ! ..

ولقد كان احتلال القدس نموذجًا لممارسات « اللصوص الذين صاروا جنودًا » .. فلقد حاصرها سبعون ألفًا – وكانت الحامية المدافعة عنها ألف جندي مصري – .. فسقطت بيد الصليبيين بعد صمود دام ثمانية وثلاثين يومًا .. ويحكي المؤرخ المسيحي « مكسيموس مونروند » كيف « انعقد ديوان المشورة العسكرية الصليبي – في ذات المكان الذي فيه مُخَلِّصُنا غفر لصالبيه – فقرر أن يُمات – [يُقْتَل] – كل مسلم باقٍ داخل المدينة المقدسة » ! .. واستمرت المجزرة أسبوعًا كاملاً .. ومن هَرَبَ في البيوت والأقبية ، قبضوا عليه وقذفوا به من أعالي البيوت والبروج في النار ؟! .. أما الذين احتموا بجامع عمر بن الخطاب ، فلقد غدت دماؤهم سيلاً « علا إلى حدِّ الركب ، بل إلى حدِّ لُجُم الخيل » – كما يقول « مكسيموس » – ! .. وفي الرسالة التي بعثوا بها إلى البابا ، يبشرونه بما صنعوا ، قالوا مفاخرين : « إذا أردت أن تعرف ما يجري لأعدائنا ، فثق أنه في معبد سليمان (جامع عمر) كانت خيولنا تغوص إلى ركبها في بحر دماء الشرقيين .. » ؟! .

وبعد مرحلة تثبيت الكيانات الصليبية المزروعة في الأرض المغتصبة .. بدأت مرحلة الهيمنة الاقتصادية على المنطقة بأسرها ، بالسيطرة على التجارة وطرقها ، وبفرض الإتاوات – بل والجزية –

على الإمارات والدول الإسلامية ! ..

وبعد عزل مصر عن المشرق ، بدأت محاولات غزوها والسيطرة عليها .. ولقد استعانوا على ذلك بضعف النظام الفاطمي الحاكم ، والذي عزلته مذهبيته « الإسماعيلية - الباطنية » عن جمهور الأمة « السُّنِّي » .. وبصراعات جنودها ـ ذوي الأصول المتعددة والغريبة ـ .. وبصراعات وزرائها - « شاور » [٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م] و « ضرغام » [٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م] ! .. حتى لقد أقامت حامية صليبية على أبواب القاهرة ، ومعها مفاتيح أبواب أسوارها ؟! .. وصالح الوزير « شاور » الصليبيين على جزية مقدارها مليون دينار ؟ ! .. وكتَب « غليوم الصوري » ، مصورًا سيطرة الصليبيين على اقتصاديات الشرق يومئذ ، فقال : « كانت خزائن مصر تحت تصرفنا ، وسلطنة أورشليم كانت آمنة من جهة البر المصري ؛ ومسالك البحر كان حرًا .. كما أن موانئ أقاليم مصر كلها كانت مفتوحة لقبول مراكبنا ، وتجارها كانوا ينقلون إلى موانئ بلادنا غَلَّات أراضيها ، وهذه المتاجر كانت كلية الفوائد لنا .. وكانت الجزية والخراجات تُوَفَّى لنا بانتظام » ؟! ..

* * * *

لكن التحدي ـ الذي اقتطع الأرض .. ومزّق وحدة الوطن .. ونهب

الثروة .. وسيطر على الاقتصاد .. قد استنفر روح المقاومة في الأمة .. فبدأت « دول الفروسية الإسلامية » تواجه إمارات فرسان الإقطاع الصليبيين - « الدولة الزنكية » التي قادها عماد الدين زنكي [٥٦٥ هـ ١١٧٠ م] - في « الموصل » - والتي حررت شمال العراق وسوريا ، وأزالت « كونتية الرها » [٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م] - أي بعد نحو نصف قرن من بداية الحملة الصليبية - ثم انتقلت بعاصمتها - في عهد نور الدين الشهيد [٥١١ - ٥٦٩ هـ / ١١١٨ هـ ١١٧٤ م] - إلى مدينة « حلب » لتزيد الضغط على الكيانات الصليبية .. ولتبدأ صفحة من الصراع « الحربي - والسياسي » بين الفريقين على مصر ؟! .. فنور الدين يريد الالتحام بها ، ليحكم وإياها - من الجنوب - طوق الحصار حول الكيان الصليبي ، لزيادة الضغط عليه من الشمال والشرق والغرب والجنوب ، تاركًا أمامه موانئ الشاطئ الشامي للبحر المتوسط ، ليرحل عنها كما جاء منها ؟! .. والصليبيون يريدون مصر ؛ لمنع طاقاتها عن أن تصب في الصراع ضدهم ، ولتظل عازلاً عن مدد المغرب والأندلس ، وللحيلولة دون نجاح استراتيجية نور الدين ! ..

وعبْر سنوات [٥٥٩ - ٥٦٤ هـ / ١١٦٣ - ١١٦٨ م] تكررت المواجهات بين جيوش الفريقين على أرض مصر .. لكنها حسمت في المرة الثالثة لصالح جيش نور الدين ، الذي قاده أسد الدين

شيركوه ، الذي تولى وزارة مصر للخليفة الفاطمي العاضد [٥٤٤ - ٥٦٧ هـ/ ١١٤٩ - ١١٧١ م] .. وعندما توفي أسد الدين خلفه في القيادة والوزارة الناصر صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ/ ١١٣٧ - ١١٩٣ م] في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ م .. ليفتح بذلك صفحة جديدة ومجيدة في تاريخ هذا الصراع .. بل وفي سفر التاريخ بإطلاق ! ..

* * *

كان « الشعر » ، في ذلك التاريخ ، هو أداة الأمة للتعبير عن « ثقافتها » و « إعلامها » ! .. وعندما تحققت وحدة مصر والمشرق ، عَبَّرَ الشعر عن دور هذا الإنجاز في تحقيق استراتيجية تحرير فلسطين - والتي كانت القدس رمزها المقدس - .. فـ « العماد الكاتب » - وهو يُهَنِّئ أسد الدين شيركوه بانتصاره في مصر ، يُذَكِّره أنَّ هذا الفتح هو في سبيل تحرير القدس :

فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بها
ميسرًا فتح بيت القدس عن كثب

وعندما يُهَنِّئ نور الدين ، يُذَكِّره بأن شروط تحرير القدس - وهي وحدة مصر والشام - قد تحققت :

أُغز الفرنج فهذا وقت غزوهم

واحطم جموعهم بالذابل الحطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما
في عقد عز من الإسلام منتظم

أما الشاعر ابن عساكر علي بن الحسن هبة الله ، فإنه يعلن أن لا عذر عن تأخير المعركة بعد توحيد الطوق وإحكامه حول كيانات الصليبيين ، فيقول لنور الدين :

ولست تُعذَر في تركِ الجهاد وقد
أصبحتَ تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل
لما تريد .. فبادر فجأة النوب !

لكن الأجل لم يُمْهِلْ نور الدين ليحقق هذه الاستراتيجية التي تحدَّث عنها الشعراء .. وبعد وفاته ، وجد صلاح الدين الأيوبي نفسه أمام « المهام العملية » اللازمة لتحقيق هذه الاستراتيجية في « أرض الواقع » ، وليس فقط في شعر الشعراء ! ..

* كانت طاقات مصر وإمكاناتها - وهي هائلة - قد جُمدت وعزلت وذبلت في حقبة الضعف الفاطمي ، التي امتدت نحو قرن من الزمان .. وكان على صلاح الدين إحياء وتوظيف هذه الإمكانات للانتصار في الصراع ضد الصليبيين .

فبعد أن طوى صفحة الخلافة الفاطمية ، وأعاد مصر إلى الولاء للخلافة العباسية ، خاض معركة كبرى وطويلة على الجبهة الفكرية والثقافية ، ليحلَّ الفكر السُّنِّي محلَّ المذهبية « الإسماعيلية - الباطنية » .. فبدأ إقامة « المدارس السُّنِّيَّة » : « الناصرية » .. و « القمحية » .. و « القطبية » .. و « السيوفية » .. إلخ .. إلخ .. والتي بني منها في عهده ست مدارس ، كانت كل منها مؤسسة ضخمة وجامعة .. حتى ليصف الرحالة ابن جبير [٥٤٠ - ٦١٤ هـ / ١١٤٥ - ١٢١٧ م] بناء إحداها - « الناصرية » - فيقول : « إنها مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ، ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يتطوف عليها بلد مستقلّ بذاته ، وبإزائها الحمام ، إلى غير ذلك من مرافقها .. » ! .. ويحكي عن سخاء صلاح الدين في الإنفاق عليها .. وقوله للقائم على عمارتها : « زد احتفالاً وتأنقًا ، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله » ؟! .. ولقد ملأ الفكر السُّنِّي لهذه المدارس - التي كانت تدرس مذاهب السُّنَّة الأربعة - الفراغ الفكريّ الذي كان يملؤه المذهب « الإسماعيلي - الباطني » ، فحلّ « الانتماء » الفكري بين « الأمة » و « الدولة » محلّ « القطيعة والانفصام » ، الأمر الذي نقّل إحياء وازدهارًا للطاقات المصرية في هذا الميدان .. ولقد بلغ من التزام صلاح الدين وتشدده في هذا الأمر ، الحدُّ الذي أغلق فيه الأزهر - ذي

المناهج الشيعية - خمس سنوات ، حتى تغيرت مناهجه إلى الفكرية السُّنِّيَّة .. ومع « الدولة » والعلم والفكر والتعليم تحوَّل القضاء إلى المذاهب السُّنيَّة أيضًا .

« وعلى الجبهة الاقتصادية ، حلَّ « الإقطاع الحربي » ، في استثمار الأرض الزراعية ، محل نظام « الالتزام » .. وهو الذي يمكن أن نسميه ، بلغة عصرنا : « اقتصاد الحرب والمعركة » .. وبلغة الفقه الإسلامي : النظام الشبيه « بوقف الأرض على الجهاد في سبيل الله » ! .. فقسمت أرض مصر إلى ثلاث وعشرين منطقة ووحدة اقتصادية . أصبحت إقطاعات مخصصة للإنفاق على فِرَق وأمراء الأجناد ! .. فتمَّ الاستنفار للطاقات الاقتصادية كما تمَّ الإحياء على الجبهة الفكرية .. وتحقيق الولاء والانتماء بين المحكومين والحكام .

« وفي التمهيد للمعارك الفاصلة ، بإحكام الطوق حول الكيانات الصليبية المزروعة قسرًا في وطن الأمة .. بدأ صلاح الدين أولى غزواته ضد الحاميات الصليبية في « حصن الكرك » ، جنوبي فلسطين ، لتوسيع وتأمين الطريق الذي يربط مصر بالمشرق ، إحكامًا لطوق الحصار حول الكيانات الصليبية .. وفي سبيل تحقيق ذلك قاد صلاح الدين أربع غزوات في الأعوام ٥٦٨ و ٥٧٩ و ٥٨٠ و ٥٨٣ هـ ..

« ولإعادة الوحدة إلى الجبهة الشرقية ، التي أصابها التفكُّك بموت

نور الدين الشهيد ، عقد صلاح الدين تحالفًا بين أمراء « الموصل » و « حلب » و « الجزيرة » و « أربيل » و « كيفا » و « ماردين » و « قونية » و « أرمينيا » ، وشارك معهم في هذا التحالف الذي نصّ على أن لا يحارب بعضهم بعضًا .. ولم يتردد في استخدام القوة ضد مَنْ خرج على هذا الاتفاق - كما صَنَعَ مع أمير « حلب » ٥٧٩ هـ ١١٨٣ م .

وتحصينًا للجبهة العامة ، المكرسة كلّ طاقاتها وإمكاناتها وجميع ثغورها لتحقيق استراتيجية التحرير بَلَغَ صلاح الدين حدَّ التشدّد ضد كل الفكريات والفلسفات والأيديولوجيات المخالفة للسُّنَّة - عقيدة الأغلبية وأيديولوجيتها - فقضى على دعاة « الإسماعيلية - الباطنية » .. وأمر ابنه - حاكم حلب - بإعدام فيلسوف « الغنوصية - الإشراقية » السهروردي - المقتول - [٥٤٩ - ٥٨٧ هـ/ ١١٥٤ - ١١٩١ م] لما أثاره ، في مناظراته مع الفقهاء ، من بلبلة فكرية كانت تخلط الأوراق بين الحضارات والثقافات ، فتضع « زرادشت » و « أفلاطون » مع نبي الإسلام ؟! وتخلط « محاورات أفلاطون » مع « الوحي الكلداني » « بالقرآن الكريم » ، الأمر الذي يميع الجبهة الفكرية باعتماد منهاج « الأشباه والنظائر » ، في وقت يحتاج فيه الصراع مع « الآخر » إلى اعتماد منهاج « الفروق » ، للتميز عن الآخر ، ولملْء الوجدان بالكراهة له ، كشرط من شروط « التعبئة » والانتصار ؟! -

وعَبْرَ هذه الإنجازات ، السياسية والفكرية .. والاقتصادية .. والعسكرية ، قاد صلاح الدين الأيوبي جيشه ، ذلك الذي أقام مع قادته وجنوده علاقة أبوية حميمة ، إلى المعركة الكبرى ، التي غيّرت اتجاه الخط البياني للصراع مع الصليبيين - معركة « حطين » - في ٢٢ ربيع الثاني سنة ٥٨٣ هـ أول يوليو سنة ١١٨٧ م .. أي بعد تسعين عامًا من بدء اجتياح الصليبيين لديار الإسلام ! ..

وعلى أرض « حطين » - في فلسطين - حَشَدَ الصليبيون ثلاثة وستون ألفًا من الفرسان والمشاة .. وأدرك الفريقان أنها « المعركة المصيرية » - بلغة عصرنا - .. وبلغة « ابن شداد » [٦١٣ - ٦٨٤ هـ/ ١٢١٧ - ١٢٨٥ م] - مؤرخ ذلك العصر - فلقد « علمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس معدومة النفس » ؟! .. فحطين هي بوابة القدس ، التي هي رمز كل الصراع ؟! ..

وانضمت إلى حرارة صيف يوليو : حرارة النيران التي أشعلها جيش صلاح الدين في الحشائش القريبة من الحشد الصليبي .. وأيضًا الحرارة المتولّدة من حدة الصراع وتلاحم المتقاتلين .. حتى ليتحدّث « مكسيموس مونروند » عن « النبال المتطايرة في الهواء ، تطير مثل طيران العصافير ، محرقة بحرارتها ؟! وماء السيوف - [أي الدماء !] - جامد في وسط المعركة ، يغطي الأرض كمياه المطر » ؟! ..

وعندما سقطت خيمة الملك الصليبي « جاي لوزنجان » مؤذنة بهزيمة جيشه ، ترجّل صلاح الدين من على ظَهْرِ جواده ، وسجد ، وقبّل الأرض شكرًا لله على هذا الانتصار ، الذي فتح له الطريق إلى القدس الشريف ! ..

وفي وصف هذا الذي حدث يوم حطين ، يقول المؤرخ « أبو شامة » [٥٩٩ - ٦٦٥ هـ/ ١٢٠٢ - ١٢٦٧ م] : « إن من شاهد القتلى - الفرنج - قال : ما هناك أسير ! .. ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل ؟! . ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين » ؟! ..

- وبعد جولات حرر فيها صلاح الدين العشرات من القرى والمدن والقلاع والحصون ... تقدّم جيشه فحاصر القدس الشريف .. فهي رمز كل الصراع .. وبها يذكر الشعر - إعلام العصر - عند كل انتصار ، وعقب كل معركة .. حتى ليقول « العماد الكاتب » لصلاح الدين ، عقب انتصاره في « غزة » :

عزوا عقر دار المشركين « بغزة »
جهارا ، وطرف الشرك خزيان مطرق

وهيجت للبيت المقدس لوعة
يطول بها منه إليك التشوق

هو البيت إن تفتحه ، والله فاعل

فما بعده باب من الشام مغلق !

نعم .. كانت القدس هي « الرمز » .. و « المقصد » .. و « المفتاح » ؟! ..

وفي يوم الأحد ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ م بدأ حصار صلاح الدين لأسوار المدينة المقدسة .. وعسكر في ذات المكان الذي اقتحمها منه الصليبيون سنة ١٠٩٩ م ! .. وأخذ يضيق عليها الخناق حتى يجبر حاميتها الصليبية - البالغة ستين ألفا - على التسليم صلحا ، كي لا تتعرض مقدسات المدينة للدمار - وكان الصليبيون ، في المفاوضات إبان هذا الحصار ، يهددون بمعركة يائسة يدمرون فيها هذه المقدسات - فقالوا لصلاح الدين : « إننا إذا يئسنا من النجاة من سيوف جندك فإننا :

- سنهدم المعبد ، والقصر المملوكي ، وننقض حجارتها حتى الأساسات ! .

- وسنحرق الأمتعة والنفائس والكنوز والأموال الموجودة في خزائن المدينة !

- وسنهدم جامع عمر ، والصخرة المقدسة ، اللذين هما موضوع دياناتك !

– وسنقتل ما لدينا من أسرى المسلمين المحبوسين في سجون المدينة منذ سنوات وعددهم خمسة آلاف أسير ! ..

– وسنذبح نساءنا وأولادنا بأيدينا حتى لا يقعوا في أسر المسلمين ! .

– وبعد أن تصير المدينة المقدسة « كيانًا من الرديم ، ومدفنًا واسعًا » سنخرج للقتال قتال اليائس من الحياة ، الذي لا أمل لديه في النجاة .. فامنحنا الأمان ، نسلم لك المدينة دون أن يمسسها أحد من الطرفين بسوء ! .. فاستجاب صلاح الدين .. ومنحهم الأمان .. فخرج الغزاة اللاتين من المدينة بما يملكون .. وبقي فيها أبناؤها – من المسلمين ومن النصارى الشرقيين – .. وتحررت القدس في ذكرى إسراء الرسول ﷺ من مكة إليها – في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م – دون إراقة قطرة دم واحدة .. وهي التي سبحت فيها خيول الصليبيين بدماء المسلمين ، بمسجد عمر ، قبل تسعين عامًا ؟!

« وبعد فتح القدس .. لم يبق – كما قال الشاعر – « باب من الشام مغلق » ! ..

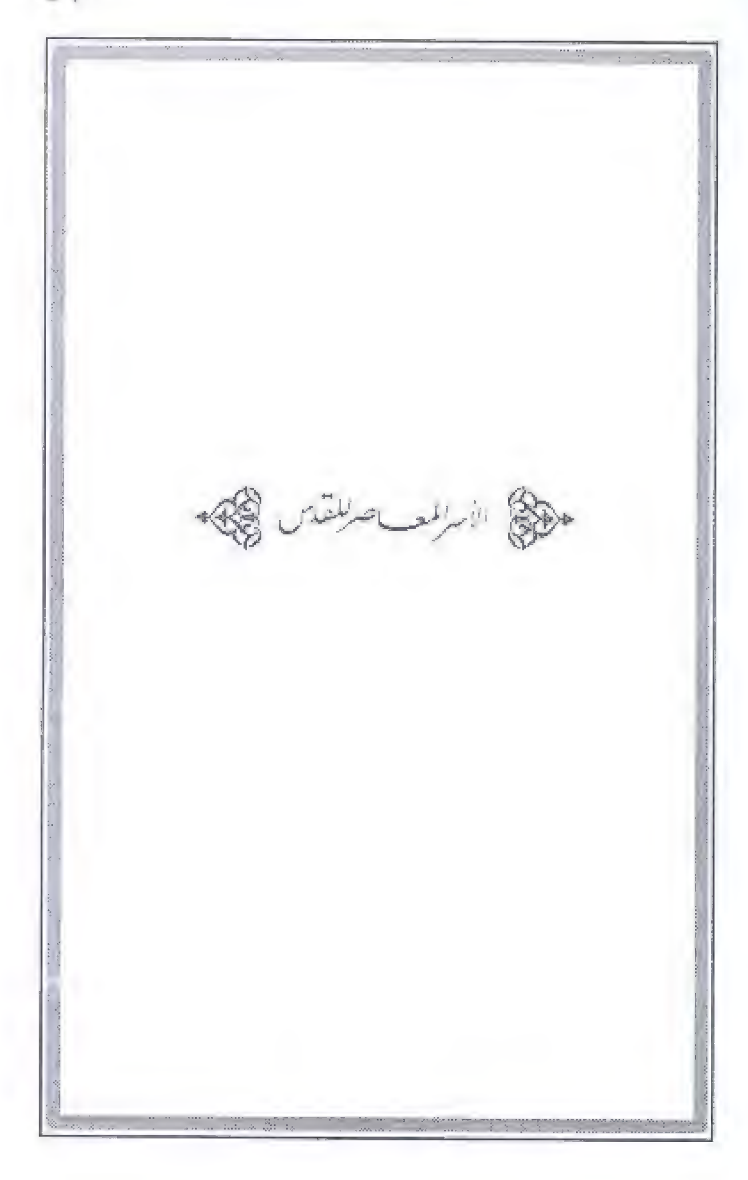
لكن أوربا لم تتراجع عن تجييش الجيوش لمحاربة صلاح الدين .. حتى لقد فرضت حكوماتها على شعوبها ضريبة قتال سموها « عُشْر صلاح الدين » ؟! .. فجاءت جيوش وأساطيل إنجلترا وفرنسا ، بل وجاء ملوكهما .. واستمر الصراع سنوات .. حتى انتهى ، مرحليًا ،

بالهدنة - بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد [١١٥٧ - ١١٩٩ م] ملك انجلترا .. لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر - في شعبان سنة ٥٨٨ هـ سبتمبر سنة ١١٩٢ م .

« وأنفق صلاح الدين أوقات السلم في تعمير ما خربته الحرب ، وبناء ما هدمه الصليبيون .. فأقام في ميادين العمران العملي والفكري والتعليمي والاقتصادي ركائز الإحياء التي تنمي روح الانتماء ، وتزكي عوامل التقدم على درب استكمال التحرير لما بقي في الأسر من حصون وقلاع .. وفي إعمار القدس كان صلاح الدين يحمل بنفسه الأحجار مع البنائين ! ..

ثم سار إلى دمشق .. وفيها مَرِضَ « بالحمى الصفراوية » .. وتوفي في ٢٦ صفر سنة ٥٨٩ هـ مارس سنة ١١٩٣ م . ليدخل ، لا في « تاريخ » الأمة وحده ، بل وفي « ضميرها » ، كواحد من أعظم عظماء المسلمين وأبرز أبطال الفتوحات منذ عصر صدر الإسلام وحتى هذا التاريخ ..

❂ ❂ ❂ ❂



الأسر المعاصر للقدس

لكن القوى الغربية ، التي حركت ونظمت وموّلت الغزوة الصليبية .. قد عادت ، في مرحلة لاحقة ، وفي طور جديد ، لتحقيق ذات المقصد القديم : « انتزاع الأرض التي تدرُّ سمنًا وعسلاً » !! واحتكار قداسة القدس لها وحدها ، وإهدار قداستها لدى الآخرين .. فبدأت هذه القوى الاستعمارية ، بعد اقتلاع الإسلام من الأندلس ، وإسقاط « غرناطة » [٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م] مرحلة « التطويق للعالم الإسلامي » :

* ففي ذات العام الذي سقطت فيه غرناطة خرجت حملة « كريستوف كولومبس » لاكتشاف طريق تطويق عالم الإسلام ..

* وعندما ضلَّ « كولومبس » الطريق ، فذهب إلى القارة الأمريكية .. خرجت الحملة البرتغالية ، لتحقيق الهدف الذي لم يحققه « كولومبس » ، فكان اكتشاف البرتغاليين لطريق الالتفاف حول العالم الإسلامي ، عَبْرَ ميناء « رأس الرجاء الصالح » [٩٠٣ هـ ١٤٩٧ م] .. أي بعد خمس سنوات من سقوط غرناطة ! ..

* وعلى شواطئ الهند المسلمة حدثت المواجهة بين البرتغاليين وبين الجيش المصري ، بقيادة المماليك ، [٩١٠ هـ - ١٥٠٤ م] .. وهي المواجهة التي انتصر فيها البرتغاليون على المماليك .

* ومع تزايد نشاط حملات « التطويق » ، حول شواطئ الهند ، وفي بحر العرب ، والخليج العربي ، والبحر الأحمر .. وفي ظلِّ ضعف الدولة المملوكية ، كان الاتجاه العثماني إلى الشرق والجنوب ، وإدخال العالم العربي في كَنَف العسكرية العثمانية [٩٢٣ هـ -

١٥١٧ م] لمواجهة مخاطر هذا التطويق ، الذي نجح في تثبيت أقدام الغزاة الأوربيين في أندونيسيا .. والهند .. والفلبين - [في القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلاديّ] . وبعد نجاح « مرحلة التطويق » للعالم الإسلامي .. بدأت مرحلة ضرب « القلب » في هذا العالم ..

« فعبر إذكاء الصراع بين « الصفويين - الشيعة » - في إيران - وبين الدولة العثمانية - القوة الضاربة والسياج العسكريّ للعالم الإسلامي - وهو الصراع الذي اصطنعته أوربا ورعت حروبه الدموية - تم شغل واستنزاف العسكرية العثمانية في صراع « إسلامي - إسلامي » ! .. الأمر الذي فتح الباب لضرب « قلب العالم الإسلامي » ، بعد أن تمت « مرحلة التطويق » ..

« فكانت حملة بونابرت على مصر [١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م] ..

« وبعد فشل الحملة الفرنسية على مصر ، جاءتها حملة فريزر - الإنجليزية - [١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م] ..

« ثم كان احتلال الجزائر ، من قِبَل فرنسا [١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م] .

« واحتلال عدن ، من قِبَل إنجلترا [١٢٥٤ هـ ١٨٣٨ م] .

« ومنع مصر - بقيادة محمد علي باشا - من تجديد شباب الدولة العثمانية - بمعاهدة لندن [١٢٥٦ هـ ١٨٤٠ م] .

« واحتلال فرنسا لتونس [١٢٩٨ هـ - ١٨٨١ م] .

« ونجاح الإنجليز في احتلال مصر [١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢ م]

« واحتلال إيطاليا لليبيا [١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م] .

* واحتلال فرنسا للمغرب [١٣٣٠ هـ ١٩١١ م] .

* وتقسيم جميع أقاليم الخلافة الإسلامية بين القوى الاستعمارية ، وفق معاهدة « سيكس – بيكو » [١٣٣٤ هـ – ١٩١٦ م] وكانت القدس – رمز الصراع – من مقاصد هذا التقسيم ..حتى أن « سيكس » – الإنجليزي – قد أقيم له في قريته – « سيلدمير » بمقاطعة « يوركشاير » – نصب تذكاري ، يقف فيه « مزينًا بالنحاس ، محصنًا بالدروع ، متقلدًا سيفًا ، وتحت قدميه يرتمي مسلم ، فوقه لفافة كتب عليها : « ابتهجي يا قدس » ؟! ..

* واحتلال إنجلترا للعراق [١٣٣٥ هـ – ١٩١٧ م] .

* وإصدار وعد بلفور – الذي قنن الشراكة « الصهيونية – الغربية » في هذه الحملة الاستعمارية [١٣٣٦ هـ – ١٩١٧ م] .. تلك الشراكة التي سبق ودعا إلى إقامتها نابليون ، أثناء حصاره لمدينة « عكا » [١٢١٣ هـ – ١٧٩٩ م] .

* واحتلال الإنجليز للقدس [١٣٣٦ هـ – ١٩١٧ م] .. ويومها قال الجنرال الإنجليزي « اللنبي » : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » ؟! .. ونشرت مجلة « بنش Punch » البريطانية رسمًا كاريكاتوريًا تحت عنوان : « آخر حملة صليبية » ، وفي الرسم يظهر « ريتشارد قلب الأسد » [١١٨٩ – ١١٩٩ م] ، وهو يحدق في القدس قائلاً : « أخيرًا تحقق حلمي » ؟! ..

* واحتلال فرنسا لدمشق [١٣٣٨ هـ - ١٩٢٠ م] عندما ذهب الجنرال الفرنسي « جورو » إلى قبر صلاح الدين الأيوبي ، فركله بقدمه ، وقال : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » ؟! ..

* ومعاهدة « لوزان » [١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م] - بين « الحلفاء الغربيين » وبين تركيا ، تلك التي قننت لطي صفحة الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة [١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م] .

* وإقامة إسرائيل - تجسيدًا للشراكة « اليهودية - الغربية » في استعمار وطن العروبة وعالم الإسلام [١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م] .

* واحتلال كامل القدس ، وبدء تهويدها [١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م] .

* ليصل الغرب إلى الاحتفال بذكرى خمسمائة عام على بدء هذه الحقبة من حقب هذا الصراع « التاريخي - الحضاري » ، بإقامة الدورة الأولمبية في « برشلونة » ، على أرض الأندلس ، في ذكرى اقتلاع الإسلام ، وإسقاط غرناطة .. لقد كانت البداية [٨٩٧ هـ ١٤٩٢ م] .. وكان الاحتفال [١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م] ؟! ..

ومع الاحتفال بذكرى مرور خمسمائة عام على اقتلاع الإسلام من الطرف الغربي لأوربا .. بدأت في نفس العام [١٩٩٢ م] حرب البوسنة ، لاقتلاع الإسلام من قلب أوربا ؟! .. وهي الحرب التي حدد وزير الإعلام الصربي موقعها في صفحات كتاب هذا الصراع التاريخي ، عندما قال « نحن طلائع الحروب الصليبية الجديدة » ؟! .

* * * *

وبرزت القدس ، « في هذه الحقبة من حقب هذا الصراع ، كما كانت في الحقبة الصليبية ، باعتبارها : « الرمز .. والمقصد .. والمفتاح » ! . فتهويدها واحتكار قداستها ، قائمان على قدم وساق ..

وإذا كانت ذاكرة الأمة ، بواسطة ثقافتها ، قد ظلت واعية بمكان القدس في هذا الصراع التاريخي ، المتعدد المراحل والحلقات .. فإن المهمة المعاصرة لثقافتنا الوطنية والقومية والإسلامية ، هي إبقاء ذاكرة الأمة على وعيها الكامل بمكانة هذا القدس الشريف ، وذلك حتى يطلع الفجر الجديد ، بالناصر صلاح الدين الجديد ! .

لقد دَرَجَ الناس - عامة الناس - على تسمية قضية القدس وفلسطين « أزمة الشرق الأوسط » .. والمطلوب هو الوعي « بتاريخ أزمة الشرق الأوسط » هذه .. ولقد أراحنا الكاتب والقائد الإنجليزي « جلوب باشا » عندما قال : « إن مشكلة الشرق الأوسط قد بدأت منذ القرن السابع للميلاد » ؟ !! .. أي منذ ظهور الإسلام !! .



المحتويات



هذا الكتاب

لقد ربط القرآن الكريم بين الحرمين - مكة والمدينة - عندما قال: { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } [الإسراء: ١].

وحدَّد رسول الله ﷺ طريق الحفاظ على هذا الرباط، عندما قال: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم، وحتى يأتي أمر الله وهم كذلك.. هم ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس».

وأقام صلاح الدين الأيوبي - بالجهاد - هذه العقيدة الإسلامية عندما حرَّر القدس.. وقال للصليبيين: « .. من القدس عرج نبينا إلى السماء.. ولا يمكن أن نتخلى عنها كأمة مسلمة.. لن تستطيعوا أن تشيدوا في هذه الأرض حجرًا واحد طالما استمر الجهاد». ولإحياء هذه العقيدة الإسلامية.. وتجسيدها.. يصدر هذا الكتاب.



